الهوية والمكان في سياق عالمي

مقدمة القسم الخامس

من كتاب قراءات في جغرافية الثقافة

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

لطالما أشار الفلاسفة والشعراء وعلماء الدين والباحثون ذوو التوجه الإنساني إلى الحاجة الإنسانية العميقة للارتباط بالمكان . وسواء أكانت الصلة بين المكان والهوية جزءًا فطريًا من النفس البشرية ، أم شرطًا ثقافيًا تكيفيًا للانتماء الاجتماعي لمجتمع ما ، فهي مسألة مطروحة للنقاش بالتأكيد . لكن الواضح هو **أن الأماكن تحتاجنا بقدر ما يبدو أننا نحتاجها** . وقد صاغ الجغرافي الثقافي يي- فو توان مصطلحًا لهذا : **"حب المكان"**. فحقيقة وجودنا مرتبطة بالمكان : فنحن نشغل مساحات منفصلة بأجسادنا ، ونعيش حياتنا في أماكن محددة ، ونستنشق هواء وماء وقوت المكان نفسه - إن لم يكن المكان الذي نتواجد فيه حاليًا ، فهو مكان ما . لنبتعد قليلاً عن هذه الأمثلة الحرفية ، فنحن نحمل معنا أيضًا أماكن في ذاكرتنا ، فنستحضر مكانًا مفضلًا - ذكرى في أوقات الحزن ، على سبيل المثال ، أو نحلم بمظاهر طبيعية من طفولتنا بعد رحيلنا بفترة طويلة . وكما أشار روبرت ساك إلى تبادلية هذه العلاقة : "لا يمكن للأماكن أن توجد بدوننا . ولكن الأهم من ذلك ، أننا لا نستطيع أن نوجد بدون أماكن".

ومع أننا مخلوقات متأصلة بعمق في مكان ما ، إلا أننا لسنا مقيدين بالمكان . لطالما تساءل البشر عن الأماكن الأخرى والأشخاص الذين قد يسكنونها ، وقد استجاب البعض لهذا الفضول ، فأنشأوا حكايات رحلات تعود إلى العصور القديمة ، إلا أن شغفهم بالاكتشاف ما يزال يتردد صداه لدى القراء المعاصرين . على سبيل المثال ، فإن الرواية الدرامية التي رواها برنال دياز ديل كاستيلو في كتاب "اكتشاف وغزو المكسيك" لا تقل إثارة لطلاب اليوم عما كانت عليه قبل 500 عام . لطالما استخدم البشر التهجير القسري كاستراتيجية عقابية ، سواءً كان ذلك تهجير الأفراد من قراهم ، أو تهجير مجموعات كاملة من الناس من وطنهم بسبب الاضطهاد العرقي أو الديني.

في الواقع ، ينطوي الجانب المظلم من قصة دياز ديل كاستيلو للمغامرة والاستكشاف على استعباد ومجازر وتهجير قسري لكثير من السكان الأصليين في المكسيك . واليوم ، يجد الكثير من الناس أنفسهم ينتقلون مرات عدة على مدار حياتهم ، وغالبًا ما يعيشون بعيدًا عن أفراد أسرهم . قد تكون أنت نفسك مهاجرًا طوعيًا ، في حالة تنقل بحثًا عن فرص تعليمية أو وظيفة أفضل ، أو جزءًا من عائلة قرر صاحب القرار الرئيسي الانتقال . قد تكون فردًا في مجتمع شتات (يشير هذا المصطلح إلى مجموعات نازحة من موطن أجدادها) ، أو ربما لاجئًا ؛ وكلاهما يُطلق عليهما اسم الكوزموبوليتانيين غير الطوعيين الذين تم تهجيرهم قسرًا ونقلهم أو تشتيتهم في جميع أنحاء العالم . في تجارب العولمة الأقل إيلامًا ، قد نتذوق مأكولات وأنماطًا موسيقية وأزياء و وسائل إعلام ، مما يدفعنا لتجربة هويات مختلفة ، أو ابتكار هويات جديدة ، تجمع عناصرها من قائمة أماكن نائية .

مع تزايد أعداد الأشخاص المتنقلين طوعًا أو كرهًا إلى ذروتها عالميًا ، ماذا عن المكان إذًا ؟ هل ما زال للمكان أي أهمية ؟ **هل أصبح العالم سلسلة من اللاأماكن المتجانسة التي يكاد يكون من المستحيل تمييزها ؟** أم أن الناس في الواقع أكثر ميلًا لتسليط الضوء على تميز المكان ، وتعلقهم الخاص به ، كاستراتيجية للدفاع ضد تآكل الهوية المهددة بالعولمة ؟ لا توجد إجابة قاطعة عن هذا السؤال ، ولكن نظرًا للجوانب المكانية

والثقافية القوية للعولمة ، فإن جغرافيي الثقافة لديهم اهتماما كبيرا بهذا الموضوع . يشترك علماء الأنثروبولوجيا الثقافية في هذا الاهتمام بشكل وثيق ، حيث يظهر عدد من أعمالهم في هذا الجزء .

من أكثر الفروقات المُربكة التي يُفرّقها الجغرافيون هو **الفرق بين الفضاء والمكان** . فرغم أن معظم الناس يستخدمون هذين المصطلحين بالتبادل ، إلا أنهما بالنسبة لجغرافيي الثقافة يحملان معانٍ مُختلفة تمامًا . من بين المصطلحين ، يُعدّ الفضاء أكثرهما تجريدًا . إذ يُوحي الفضاء بالأبعاد (العمق ، الحجم ، المساحة)، واللانهائي ، والفراغ ، كما في "الفضاء الخارجي" . ومع ذلك ، وكما يُسارع جغرافيو الثقافة المعاصرون إلى الإشارة ، فإن الفضاء أبعد ما يكون عن الخواء من التشابك في العلاقات الاجتماعية . بل **إن الفضاء يُنتَج اجتماعيًا** . **أما المكان فهو أقلهما تجريدًا** ، إذ يُشير إلى الألفة ، والحدودية ، والمباشرة . **المكان هو فضاء مُشبع بالمعنى** . وفي أبسط تعبير له ، غالبًا ما يُساوي المكان بالمحلية ، كما في "أنت هنا" . لكن معظم جغرافيي الثقافة المعاصرين يفهمون المكان على أنه أكثر تعقيدًا من مجرد المحلية .

يمكن النظر إلى المكان كحلقة وصل متدفقة من العلاقات الاجتماعية المعاشة على مقاييس متنوعة ، من المجرد إلى الملموس ، ومن العالمي إلى المحلي . في الواقع ، إن النطاق المحلي للجسد هو ما جعل المكان موضع تدقيق جديد من قبل الجغرافيين البشريين النقديين . إن وجودنا في العالم (ما أسماه هايدغر "الوجود") ينطوي على تفاعل متجسد بشكل وثيق مع محيطنا : صنع المكان وصنع المعنى كنشاطين مترابطين . وفي هذه الأوقات العالمية تحديدًا ، تتضمن هذه العملية روابط عبر النطاق والمكان . وكما لاحظ الفيلسوف إدوارد كيسي : "لقد أثبت موضع الجسد المعيش ، الذي يبدو منكمشا ، والذي يكون دائمًا هنا ، أنه أساس فعال لما أصبح رؤية واسعة لماهية المكان ، حتى عندما يكون موجودًا هناك وبعيدًا" .

مع ذلك ، في الوقت الحاضر، ومع تزايد حركة الناس والأفكار والمنتجات على سطح الأرض ، أصبحت الصلة بين المكان والهوية محل تساؤل متزايد . فالمكان قد يعني الاستقرار والألفة والانتماء . ومن هذا المنظور، يُصنع المكان من خلال التكرار النمطي للسلوكيات في مكان واحد على مر الأجيال . وكثيرًا ما يُقترح أن الانتشار العالمي لسلاسل المتاجر، ومطاعم الوجبات السريعة ، والأنماط المعمارية الأمريكية ذات الإنتاج الضخم ، بدءًا من مراكز التسوق الصغيرة وصولًا إلى مساكن الضواحي ، يعني أن المظاهر الطبيعية - وخاصة في المدن - بدأت تبدو أكثر تشابهًا في جميع أنحاء العالم . ويزداد تآكل خصوصية المكان ، ومعها الشعور الثابت بالانتماء الذي يُمثل - بالنسبة للبعض - جوهر الهوية .

إلا أن آخرين يُشيرون إلى أن هذه المفاهيم عن المكان مُضللة . فلم يُعنَ المكان قط بالاستقرار، أو الوحدة الطبيعية ، أو تجربة انتماء يتشاركها الجميع . على العكس تمامًا ، يكشف تاريخ أي موقع جغرافي عن تدفق مضطرب للغرباء ، وصراعات على الانتماء ، ونزوح ، واختلاط ثقافي . وبالتالي ، يمكن فهم هذه الأوقات العالمية على أنها ليست أكثر من تكرار لما كان عليه الحال ، وإن كان على نطاق أوسع و وتيرة أسرع من ذي قبل . وهناك من يرى قيمة حقيقية في الحفاظ على الإحساس بالمكان ، أو العودة إليه . في اختيار أرتورو إسكوبار ، يُجادل بأن محاولات الكولومبيين على ساحل المحيط الهادئ للحفاظ على التنوع البيولوجي في المنطقة التي يعيشون فيها تُقدم مثالًا جديرًا بالثناء على المقاومة في وجه العولمة . يوثق كيث باسو أهمية الارتباطات المكانية في الحفاظ على تاريخ وهوية شعب الأباتشي الغربي الذي أجرى مقابلات معه في نيو مكسيكو ، مشيرًا إلى **أن فقدان الأرض يُعادل فقدان الشعور بالذات والمجتمع** .

تبنى آخرون التحرر من الهويات والممارسات المرتبطة بالمكان (على عكس الهويات والممارسات القائمة على المكان) التي توفرها المستويات المتزايدة من الحركة والتبادل التي توفرها العولمة . إن مفاهيم الشتات والتهجين والكريول - وهي مصطلحات تشير إلى الطرق التي تنطوي بها الحركة البشرية على امتزاج التقاليد والهويات والممارسات في شيء جديد - تستدعي القدرة ، الناشئة أحيانًا عن الحاجة وأحيانًا عن الاختيار

، على الانتقاء والاختيار من بين عناصر ثقافية متنوعة في صياغة مشاعر ذاتية جديدة وأكثر مرونة . ويشير كل من ستيوارت هول وليزا مالكي إلى كيف أن المفاهيم الرجعية للأماكن ، وخاصة الدول القومية ، قد ساهمت في رسم حدود تُصم أولئك الذين يقعون ، أو يُجبرون ، على الخروج من حدودها . وبهذا المعنى ، تكشف مفاهيم المكان عن جانب مظلم وإقصائي .

في هذه المناقشات ، يجب التعامل مع مصطلح العولمة بشيء من الحذر . تعريف موجز (وإن لم يكن دقيقًا بما يكفي) **للعولمة** هو ازدياد مستوى الروابط والتبادل بين شعوب العالم وأماكنه ، مما يؤدي إلى شعور بتسارع الزمن وتقلص المسافات . يُنظر إلى العولمة أحيانًا على أنها ظاهرة اقتصادية بحتة ، تُنفذها الشركات وتُختبر على أرض الواقع من خلال آثار إعادة الهيكلة الاقتصادية . من إسهامات جغرافيي الثقافة القول بأن العولمة **عملية ثقافية لا تقل أهمية عن كونها عملية اقتصادية** ، على الرغم من وجود بعض الخلاف حول درجة الاستقلال التي يمكن أن تُحدثها الثقافة . ومن المفاهيم الخاطئة الشائعة الأخرى أن العولمة ظاهرة حديثة نسبيًا ، بدأت في منتصف القرن العشرين .

إذا نظرنا إلى العولمة من منظور أوسع ، يتضح أن التبادل الثقافي والسياسي والاقتصادي للأشخاص والأفكار والسلع قد استمر لقرون . من المهم ملاحظة أن العولمة لا تقتصر على الغرب الصناعي . في الواقع ، تأتي بعض أقوى العوامل وأكثر المساهمات ابتكارًا في العولمة من مجتمعات غير غربية . على سبيل المثال ، فإن الجاذبية العالمية للسلع و وسائل الإعلام المستوحاة من الرسوم المتحركة اليابانية ، مثل هالو كيتي وبوكيمون والأنيما ، لافتة للنظر . وكما تُذكرنا دورين ماسي ، فإن العولمة عملية غير متكافئة مكانيًا واجتماعيًا . **ينطوي الكثير مما نسمعه عن العولمة على التحرر من قيود الحدود ، والانكشاف على ثقافات وأفكار جديدة ، وحرية اختيار هويات جديدة** . ومع ذلك ، وكما تناقش العديد من المختارات في هذا الجزء ، قد يجد الناس أنفسهم على الجانب المتلقي للعولمة : فقراء ، أو محاصرين في مكانهم ، أو مجبرين على التنقل رغماً عنهم . وفي هذا السياق ، تكتسب سياسات المكان والهوية أهمية بالغة .

يُعد الحجم ، أو مستوى التجميع المكاني الذي يوجد فيه شيء ما أو تحدث فيه عملية ما ، امرا مهمًا أيضًا . ففي معظم فترات الحداثة في معظم أنحاء العالم ، كان حجم الدولة القومية بالغ الأهمية . ويرى البعض أن الابتعاد عن حجم الدولة القومية كموقع محدد للولاء والمواطنة والعمل والهوية رمزٌ لعصر عالمي . **إن افتراض وجود صلة مستقرة بين المكان والهوية هو جوهر الدولة القومية** ، وهي صلة تتلاشى تدريجيًا من خلال تزايد مستويات التنقل وتكوين ارتباطات مكانية على نطاقات مختلفة عن نطاق الدولة القومية . ويذهب بعض الباحثين إلى حد التشكيك في مستقبل الدولة القومية ذاته ، مؤكدين أننا نعيش الآن (أو سنعيش قريبًا) في **عصر ما بعد القومية** . ففي عصر ما بعد القومية ، تتوقف حدود الدول عن الأهمية ، وتتشكل الولاءات المكانية إما على نطاقات مختلفة (أصغر أو أكبر) من نطاق الدولة القومية ، أو لا تتشكل على الإطلاق ، وتصبح الروابط الاجتماعية المكانية أكثر مرونة وزوالًا من ذي قبل .

في مواجهة هذا ، هناك ردتا فعل محتملتان على الأقل . من ناحية ، قد ينشأ موقف دفاعي مع بذل محاولات لحماية الدولة القومية المتآكلة . تُحصّن الحدود ، ويُمنع الغرباء (اللاجئون والمهاجرون والأجانب) من الدخول ، وتُبذل محاولات يائسة لتطهير الفضاء الوطني من خلال ممارسات مثل الترحيل ، وفرض قواعد اللباس ، وقوانين تُعلن لغة رسمية . وكما يستكشف ديفيد مورلي وكيفن روبينز فيما يتعلق بألمانيا ، يُمكن إحياء الإشارات إلى أوطان يُفترض أنها خالدة أو جذور عرقية أصيلة والترويج لها في وسائل الإعلام .

من المهم ملاحظة أن الارتباطات بين المكان والهوية على المستوى الوطني غالبًا ما تنطوي على سرد قصصي ، مثل السرد المُبنى في الأفلام التي حللها مورلي وروبنز . على سبيل المثال ، يُمكن لأساطير الأصل أن تُقدم ادعاءات قوية بالمكان ، وغالبًا ما تكون في صميم الهويات الوطنية والإثنية . وبالتالي ، يلعب

السرد واللغة دورًا مهمًا في بناء الأمة . كما توضح ليزا مالكي في مختاراتها ، فإن الاستعارة أسلوبٌ بلاغيٌّ استُخدم غالبًا لربط الناس بالأماكن بطرقٍ توحي بروابط عضوية - وبالتالي طبيعية - كتلك الموجودة بين جذور الأشجار والتربة . وهكذا ، فإن تصوير وسائل الإعلام واللغة نفسها ، إلى جانب معظم الرموز والعروض المرتبطة بالدولة القومية (الأعياد ، والمسيرات ، ومراسم أداء القسم ، والأناشيد ، وطقوس العلم ، والأزياء) تعمل ثقافيًا على تقديم الدولة القومية كمقياس طبيعي يتجلى فيه الانتماء والهوية . وبهذا المعنى ، وكما نوقش في مقدمة الكتاب ، **وُصفت الدولة القومية بشكلٍ صحيح بأنها مجتمعٌ مُتخيل** .

من ناحيةٍ أخرى ، قد ينشأ ما تُسميه دورين ماسي **"الشعور المنفتح بالمكان"** في مواجهة العولمة . فالأماكن - وكانت دائمًا - نتاج تفاعلٍ مكاني ، من خلال الاستعمار ، والغزو ، والاستكشاف ، والهجرة . في الواقع ، كما تُشير ليزا مالكي ، فإن فكرة الدول المنفصلة ذات الحدود التي تعزلها عن الدول الأخرى هي محض خيال : خيال قوي بلا شك ، ولكنه خيال مع ذلك ، ويمكن إعادة كتابته بطرق متعددة . تُشير ماسي إلى **أن فهم الأماكن ليس كأشياء ، بل كعناقيد في شبكات اجتماعية مكانية ، يُتيح تقديرًا لمدى عمق ارتباط حياتنا بحياة الناس في أماكن أخرى** . يُوضح ستيوارت هول ذلك باستخدام مثال الأشكال الموسيقية الأفريقية الشتاتية عبر الأطلسي . في الولايات المتحدة ، يُسلّط الجدل حول سلامة الحدود في ضوء هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001 ، واستمرار نفاذية الحدود مع المكسيك ، الضوء على التوترات بين الشعورين الدفاعي والتقدمي بالمكان . في أوروبا الغربية ، المنطقة العالمية التي قطعت أشواطًا كبيرة نحو التكامل الاقتصادي والثقافي والسياسي ، تُبرز النقاشات الدائرة حول تعميق وتوسيع الاتحاد الأوروبي هذه التوترات بين الدفاع عن الدولة القومية وتبني النظام العالمي الجديد .

ولكن هل يكفي السعي لإبقاء الغرباء خارجًا ؟ أم أن الدول القومية تُبنى دائمًا على الاختلافات الداخلية المكبوتة ؟ لم تُمنح النساء والمثليون جنسيًا والأقليات العرقية والدينية حقوقهم كاملةً من قِبل الدول القومية . ورغم أن الدول القومية قد تسعى جاهدةً إلى بناء مظهر الوحدة والشمول ، إلا أنها لا تكون موحدة أو شاملة تمامًا . وكما يُجادل كيث باسو وأرتورو إسكوبار في اختياراتهما ، فإن الشعوب الأصلية والأقليات المُصنفة عرقيًا تُشكّل أمثلةً على هؤلاء الغرباء داخلها . في كلتا الحالتين ، يُعدّ المكان أمرًا حيويًا للحفاظ على هذه المجتمعات . في حالة الأمريكيين الأصليين الذين ناقشهم باسو، فإن الارتباط المعقد بين اللغة والمكان هو المسؤول عن حفظ السجل التاريخي ، وفرض السلوك السليم في مواجهة ضغوط المجتمع الأمريكي السائد . يُسلّط إسكوبار الضوء على النشاط السياسي الأفرو- كولومبي في مواجهة القوى العالمية التي تسعى إلى استخراج الموارد من منطقة ساحل المحيط الهادئ ذات التنوع البيولوجي حيث يعيشون . إن الدفاع عن المكان ، في هذا السياق، **يثير تساؤلًا حول ما إذا كان الموقف الدفاعي المتعلق بالمكان يمكن أن يكون تقدميًا سياسيًا في الواقع .**